اعتناق البرجنديين المسيحية في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي

بدران عبد الونيس محمد حسن
مدرس مساعد بقسم التاريخ
كلية الآداب- جامعة بنى سويف

أ.د/ عادل عبد الحافظ عثمان حمزة
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب- جامعة المنيا

مقدمة:

ظهر البرجنديون لأول مرة على مسرح الأحداث الأوربية في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي عندما تحركت جموعهم عند الجزء الأوسط من حوض الراين عام ٢٧٧ م. وفي القرن الرابع استخدمتهم الإمبراطورية في جيوشها كما هو الحال مع غيرهم من طوائف الجرمان. ورغم أن البرجنديين كانوا أكثر قبائل الجرمان مسالمة فإنهم اضطروا إلى استخدام العنف في شق طريقهم إلى غالة عبر الراين، وذلك تحت ضغط الهون، حتى سمح لهم القائد الروماني إيتيوس Aetius بالإقامة أخيرًا في المنطقة الواقعة قرب نهر السأون. وقد استغل البرجنديون فرصة اشتراكهم مع الرومان والقوط الغربيين ضد الهون في موقعة شالون سنة ٤٥١م، وأخذوا يتوسعون- سلميًا -حتى انتشروا سنة ٤٦٨ م في جميع الجهات الواقعة بين جبال الألب والرون، ولم يَحِلْ دون وصولهم إلى شاطئ البحر المتوسط سوى غزو أيورك Euric ملك القوط الغربيين لإقليم بروفانس.

دخل البرجنديون في صراع مع الفرنجة في غالة حتى نجح الفرنجة في هزيمتهم عام ٥٣٤م، ثم أخذوا يتوسعون في مدينة تلو الأخرى في المملكة التى عُرِفَتْ باسمهم وهي برجنديا؛ ليصلوا بفتوحاتهم إلى حدودها مع القوط الشرقيين على جبال الألب والديورانس؛ وليصبحوا بذلك سادة غالة كلها تقريبًا ومن بينها إقليم برجنديا.

أسباب اعتناق البرجنديين المسيحية:

كان معظم الغزاة الجرمان لا يزالون على الوثنية في وقت هجرتهم إلى الإمبراطورية الرومانية ودخولهم أراضيها غازين أو مرتزقة أو معاهدين، فاعتنقوا المسيحية تدريجيًا، وأخذت المسيحية بداية من منتصف القرن الرابع الميلادي تشق طريقها بين الجرمان وكان القوط من أوائل الشعوب الجرمانية التي اعتنقت المسيحية[١].

وكان إدخال المسيحية بين الجرمان واحدًا من أهم الأحداث التي تلت الهجرات الجرمانية خلال القرن الثالث الميلادي والثلاثة قرون التالية له[٢]. وقد تعددت الأسباب التي أدت إلى تحويل الجرمان بما فيهم البرجنديون Burgundians إلى المسيحية، والتي يمكن تلخيصها فيما يلي:

أولًا: المرتزقة الجرمان: كان المرتزقة الجرمان الذين جندوا في الجيوش الإمبراطورية إحدى الوسائل التي تعرَّف من خلالها الجرمان على المسيحية. ولكن ليس من السهل اعتقاد أن هؤلاء المحاربين على عودتهم لوطنهم كانوا قادرين على إقناع عدد كبير من قبائلهم بالتخلي عن عبادتهم التقليدية، ولعل ذلك يتوقف على طابع المحارب ومنزلته العائد نفسه- فلو كان أحد رجال القبيلة الذين يحظون بالاحترام، فتأثيره بعد رجوعه أو عودته ربما يكون أقوى من الشخص العادي- كما أن التحويل نفسه يمثل نوعًا من المخاطرة بأن يصبح الشخص العائد مرفوضًا عند عودته إلى وطنه ورفضه الاشتراك في أعياد عشيرته واحتفالاتهم. بالإضافة إلى أن السخرية وسوء المعاملة من الجيران قد يجبر المتحولون الجدد على اعتناق آرائهم في صمت، وظاهريًا للتوافق مع الأساليب القديمة. أدى ذلك كله إلى قلة عدد المتحولين نتيجة نشاط الجنود العائدين، ولم يسبق أن تحول أى من الشعوب الجرمانية الكبيرة إلى المسيحية من قبل المرتزقة العائدين: وإنما تفسر أنشطتهم وجود المسيحيين الفرديين فقط فيما وراء الحدود الرومانية(٣).

ثانيًا: الأسرى الرومان: نجح العديد من الجنود الرومان المسيحيين الذي وقعوا أسرى في أيدي الجرمان في تحويلهم إلى المسيحية. ولا يمكن التشكيك في أهمية هؤلاء السجناء في تحويل آسريهم، ولا في تأثيرهم الذي كان أكبر بكثير من تأثير الجنود العائدين.

ثالثًا: التجارة: بالإضافة إلى المرتزقة الجرمان والأسرى كانت التجارة هي الوسيلة الثالثة التي عبرت من خلالها المسيحية إلى العالم الجرمانى، حيث كان المبشِّر يسافر على طول طرق التجارة مع مجموعة من التجار. وكانت أولى خطواته هي تحويل زعيم أحد القبائل ورجاله البارزين، مما يسِّهل له التبشير بشكل علني من ناحية، وعدم تعرضه لأي أذى من ناحية أخرى. وأخيرًا يعمل على توفير الخطوات المحتملة كلها لتأسيس كنيسة مع واعظ دائم، بحيث يتعرض الوثنيون بشكل مستمر على التأثير المسيحى. وربما تكون تلك العملية برمتها مدعومة ليس باهتمام الكنيسة وسلطتها وأموالها فقط، ولكن من الإمبراطور نفسه، الذي ربما يعد هذه المهمة إستثمارًا سياسيًا(٤).

رابعًا: الاعتناق من تلقاء أنفسهم: فيما يتعلق بالبرجنديين الذين سكنوا على ضفاف نهر الراين، ومن ثم عبروا إلى غالة، وفقًا لرواية المؤرخ "سقراط" فقد اعتنقوا المسيحية من

تلقاء أنفسهم بعد أن اعتبروا إله الرومان أقوى كائن يمكن أن يدافع عنهم ضد هجمات الهون المغتصبين(٥).

ونتيجة لكل ما ذكر تم تحويل رجال القبائل بشكل فردي إلى المسيحية، ولم يتم تحويل شعوب بأكملها. فلم يفعل المبشرون الرومان المحترفون أي شيء بين الجرمان خارج الحدود قبل سقوط الإمبراطورية. والسؤال الآن متى تم تحويل الشعوب الجرمانية الكبيرة؟ للإجابة عن هذا السؤال يوجد ثلاث مقترحات تبدو متسقة مع الأدلة الموجودة وهي:

١- لم يصبح أحد من الشعوب الجرمانية مسيحيين بالدرجة الأولى طالما أنهم ظلوا خارج الحدود الرومانية قبل عام ٤٧٦م.

٢- تم تحويل جميع الشعوب الجرمانية الذين دخلوا المحافظات الرومانية قبل ذلك التاريخ.

٣- أن التحويل تم من خلال أنشطة المبشرين الجرمان وخاصة القوط، وليس الرومان، ولكن نجاحات المبشرين القوط لم تتحقق خارج حدود الإمبراطورية، وإنما بين الجرمان الذين كانوا يعيشون في الإمبراطورية الرومانية أو على جانبي حدودها. وبعبارة أخرى، وجد التحويل جنبًا إلى جنب مع الاستيطان في المحافظات الرومانية(٦).

روايات المؤرخين عن مذهب البرجنديين:

ولم يعطى لنا المؤرخ إميانوس مارسلينوس أية إشارة على أن الكهانة والممارسة الوثنية التي يصفها بين البرجنديين قد اختفت في ٣٩٥م، عندما كان يكتب تاريخه. والاعتقاد السائد هو أنهم ما زالوا وثنيين عندما دخلوا غالة في عام ٤٠٦م؛ إذ من الصعب أن نرى كيفية شق المبشرين طريقهم من خلال أراضي الجرمان والشعوب الوثنية الأخرى في جنوب ألمانيا لكي يولوا للبرجنديين انتباهًا خاصًا(٧).

وبصرف النظر عن ذكر الملك الكاهن من قبل إميانوس، لم تعطى لنا المصادر أية معلومات عن عبادة البرجنديين السابقة، ومثل الجرمان الآخرون كان عليهم أن يعبدوا الألهة الوثنية. ولا يزال هناك أثر غير مباشر لذلك في اسم إمراة برجندية من القرن السادس، تدعى أنسيموند، ويعنى اسمها "حماية المقابض". وكان أنسيس Anses، مجموعة من الألهة الجرمانية التي حظيت باحترام خاص من قبل القوط. كما أن هناك بعض الطقوس الوثنية التي اخترقت

المسـيحية البرجندية، مثل تعليق النسـاء لؤلؤة من الكهرمان أو الزجاج على معطفهم، تلك التمائم التي على الأرجح تهدف إلى درء سوء الحظ(٨).

وتم تحويل البرجنديين إلى المسـيحية، إن لم يكن قبل اسـتقرارهم في غالة، على الأقل عندما كانت مستوطناتهم لا تزال جديدة(٩). ومن اللافت للاهتمام أن المصادر البرجندية لا تسجل التحويل سـواء إلى الأريوسـية أو الكاثوليكية(١٠). إنما جاءت روايات المؤرخين عن مذهب البرجنديين من مصـادر غير برجندية، مثل "أوروسـيوس" Orosius، و"سـقراط" Socratos، و"جريجوري التوري" Gregory of Tours، ومؤلف "السجل الغالي" The Gallic Chronicles، مما أدى إلى تعدد الروايات حول مذهب البرجنديين، فهل كان أريوسيًا أم كاثوليكيًا؟.

يخبرنا "أوروسـيوس" أن البرجنديين اعتنقوا المسـيحية على المذهب الكاثوليكي قائلًا " بتدبير من الرب، أصـبحوا جميعا مسـيحيين، يعتنقون المذهب الكاثوليكي، ويعترفون بالطاعة لرجال ديننا، وأصـبحوا يحيون حياة هادئة ولطيفة، وفيما يتعلق بالغاليين، تعاملوا معهم ليس لكونهم رعايا إنما إخوة مسـيحيون"(١١). وقد دُعِّمت وجهة نظر أوروسـيوس هذه من قبل المؤرخ البيزنطي "سـقراط"، والذي جاءت روايته عن اعتناق البرجنديين للمسـيحية كالتالي: "هناك أمة من البرابرة يسكنون خارج الراين، تسمى البرجنديين.... دمر الهون، عن طريق الغارات المستمرة على هذا الشعب بلادهم، وقتلوا أعدادًا كبيرة منهم في أغلب الأحيان. ولم يقرر البرجنديون في هذه الحيرة اللجوء إلى أي إنسـان، بل التزموا بحماية بعض الآلهه، وبعد أن اعتقدوا بجدية أن إله الرومان يدافع عن أولئك الذين يعبدونه، اعتنقوا جميعًا الدين المسـيحي، وذهبوا إلى إحدى مدن غالة وطلبوا من الأسـقف منحهم المعمودية المسيحية، والذي بدوره أمرهم بالصيام سبعة أيام، وعمَّدهم في اليوم الثامن، وبالتالي أصـبحوا مسـيحيين منذ ذلك الحين"(١٢). وبالنظر لتلك الروايتين نجد أن التشـابه بينهما لم يتوقف عند تحديد مذهب البرجنديين بالكاثوليكي فقط، إنما اتفقت الروايتان على أن اعتناق البرجنديين للمسـيحية تم من تلقاء أنفسـهم وليس نتيجة لنشاط المبشرين.

ورغم تشـكيك بعض المؤرخين في رواية "أوروسـيوس" واعتقادهم أنها مجرد اختراع ديني، إلا أن التحليل الدقيق لنص "أوروسـيوس" لا يترك مجالًا للشـك في أن البرجنديين قبل أن يصحبوا أريوسيين، ربما تحت تأثير القوط، كانوا كاثوليك(١٣). ويعلق "إيان وود" Ian Wood على رواية "أوروسـيوس" قائلًا: " من الممكن قبول ادعاء أوروسـيوس بأن البرجنديين حولا في البداية

إلى الكاثوليكية، ورؤية جندوباد Gundobad كحاكمهم الأريوسي، ربما يكون تأثر موقفه الدينى بمعلمه وسيده ريكيمير Ricimair الأريوسى"(١٤).

وعلى العكس من ذلك يقترح مؤلف "السجل الغالى" أن الشعوب الجرمانية الكبرى، التي استقرت في غالة بما في ذلك البرجنديون كانوا أريوسيين كلهم بحلول عام ٤٥١م(١٥)، وهو مدعوم في هذا من قبل "جريجوري التوري" الذي يؤكد على أريوسية البرجنديين على نهر الرون أيضًا(١٦).

ويعلق المؤرخ سويتزر Sweetser على مذهب البرجنديين قائلًا:" مهما كانت عقيدة البرجنديين السابقة، فقد أصبحوا أريوسيين رسميًا في عام ٤٥١م، وكان لهذا التحول انعكاسات سياسية. فقد عاش البرجنديون قبل عام ٤٥٠م في ساوبوديا لمدة عشر سنوات، كانوا خلالها محاطين بالقوة الأريوسية والقوط الغربيين، ومنحهم التحويل إلى الأريوسية الحصول على الحلفاء. كما أنهم لكونهم أريوسيين، يمكن للنبيل البرجندي أن يتزوج ليس فقط من البيوت الحاكمة المجاورة في غالة، وإيطاليا، وأسبانيا، وإنما من القبائل الأريوسية عبر الراين"(١٧).

ويتفق المؤرخ ميلي Mille مع ذلك الرأى؛ حيث يرى أنه من الصعب أن يكون البرجنديون قد اعتنقوا المذهب الأريوسي عقب تحولهم للمسيحية قائلًا: "ولكن هذا الافتراض ليس له أي أساس من الصحة، بل هو يعارض شهادة "أوروسيوس" و"سقراط"، بالإضافة إلى مجموعة من الحقائق التاريخية التي تثبت أنهم حافظوا على الدين المسيحي بكل نقاوته حتى عهد جندوباد". ويتساءل "هل يمكننا أن نصدق أنه لو أخذت الأميرة "كلوتيلدا" Clotilda المبادىء الأولى لتعليمها في محكمة أريوسية، كانت جلبت إلى الفرنجة اعتقادًا حقيقيًا نقيًا، ووفقًا لما يخبرنا به التاريخ، مهما كانت الحالة، فإن أخلاق المسيحية قد خففت من عادات البرجنديين عندما جاؤوا للاستيطان في غالة"(١٨).

ومن الواضح أنه كان هناك أريوسيون بين البرجنديين في القرن الخامس: وربما كانوا، من الناحية العددية متفوقين على الكاثوليك في بلاط "جندوباد". ومال المؤرخون المعاصرون لأخذ هذه الغالبية سببًا لقبول تصنيف "جريجوري التوري" للبرجنديين الأساسي كأريوسيين. ويبدو أن تفسير "جريجورى" يناسب هدفه ليكون قادرًا على المقارنة بين المتحول الكاثوليكي "كلوفس" Clovis وأتباعه و"جندوباد" الأريوسي وأتباعه البرجنديون(١٩).

وفي الحقيقة خضع هؤلاء المؤرخون لأهوائهم الشخصية وأهدافهم عند كتابتهم للتاريخ؛ فبالرغم من أن إشارة "أوروسيوس" عن امتلاء كنائس الشرق والغرب بالهون Huns والسويفي Suevi والوندال Vandals والبرجنديين Burgundians تمدنا بمؤشر عن انتشار المسيحية الأرثوذكسية بين هذه الشعوب قبل عام ٤١٧م، إلا أنها في الوقت نفسه قد لا تعدو أن تكون مجرد نوع من التأكيد بالغ التفاؤل صاغه كاتب لدعم فكرته الرئيسية، وهي أن هذه الأيام لم تكن سيئة بالقدر الذي أصر عليه الرومان الوثنيون. وعلى نحو مماثل من المؤكد أن روايات "جريجوري التوري" عن أريوسية البرجنديين وكاثوليكية الفرنجة تأثرت برؤيته للفرنجة "كشعب الله المختار"[٢٠].

وفي الحقيقة إن مسألة تحويل الشعب البرجندي في الأصل سواء إلى الأريوسية أو الكاثوليكية، تظل صعبة. ويكفي القول إنه بحلول عام ٥٠٠م لم يكن هناك سوى كنيسة أريوسية واحدة في برجنديا. بينما ظلت الكنيسة الكاثوليكية بنظامها من الأبرشيات وتدرّج الأساقفة، مؤسسة بشكل جيد في مجتمع الغالو رومان، وظل السكان المحليين موالين لها. وربما يكون الحال نفسه للبرجنديين أيضًا. وفي الحقيقة وصل هذا التردد إلى العائلة المالكة، فبينما كان "جندوباد" وشقيقه "جودجزل" أريوسيين، كانت زوجاتهن كاثوليكيات ومؤسسى كنائس[٢١].

الطوائف الدينية فيي المجتمع البرجندي:

لم يقتصر الخلاف الديني في المجتمع البرجندي على المذاهب فقط؛ إنما كان هناك أيضًا بعض البقايا الوثنية في المملكة بحدود عام ٥٠٠م. والدليل على ذلك إشارة قيصريوس إلى الوثنيين الذين كانوا يعيدون بناء المعابد التي دُمِّرت من قبل المسيحيين. كما أنه في أواخر عام ٥٢٢م، يُلقي أفيتوس أسقف فيين موعظة في إحدى المدن بمناسبة تكريس كنيسة جديدة بعد تحطيم معبد وثني. بالإضافة إلى أن هناك الكثير من الأدلة في الفترة الكارولنجية على الممارسات الوثنية المستمرة في غالة، وليس من المعروف ما إذا كانوا غالو رومان أو من الجرمان، ولكن يبدو من المنطقى افتراض أن الوثنية استمرت على الأرجح بين السكان الأصليين في غالة أكثر من الجرمان القادمين الذين يبدو أنهم فقدوا وثنيتهم عندما هاجروا بيوتهم التقليدية والمعالم المقدسة المألوفة لهم[٢٢].

لم يتوقف الانقاسم الديني في برجنديا على تلك الفئات فحسب، بل وجد أيضًا فريقًا آخر من السكان يدينون باليهودية. وكان اليهود في مملكة البرجنديين مثل إخوانهم في جميع أنحاء

غالة خاضعين للقانون الروماني. ولكن في حين احتوى مختصر "آلاريك" Alaric[٢٣] على أحد عشر قانونًا تميز اليهود عن غيرهم كانت قيد الاستخدام في غالبية غالة، فالقانون الروماني للبرجنديين لم يكن لديه إلا قانون واحد فقط من هذا النوع[٢٤].

بالإضافة إلى هذا العنوان الوحيد في القانون الروماني للبرجنديين، كان هناك بند فى كتاب القانون البرجندي. وجد "جندوباد" Gundobad أو وريثه أنه من الضروري التمييز بين الهجمات على المسيحيين من قبل اليهود وغير اليهود. ومن المحتمل أن هذا القانون مبتكر، كان يهدف إلى استكمال البنود الجزائية العامة للقانون، كما أنه يبرز القسوة المعينة للإجراءات المحفوظة لليهود الذين أُدينوا تحت هذا القانون[٢٥].

ونص ذلك القانون على أن أي يهودي يتجرأ على رفع يده بأي آلة على مسيحي، أو الإمساك بشعره، يعاقب بقطع يده. وإذا رغب في تعويض فقدان يده، يجب تعويضها بدفع خمسة وسبعين صولدى Solidi[٢٦]، وغرامة مالية قدرها اثنتا عشرة صولدى. وبغض النظر عن ذلك، نص القانون أيضًا على أنه في حالة رفع أي يهودى يده على كاهن مسيحي، يُعدم وتحول ملكيته إلى الخزانة. الأمر الذي يثبت إمكانية امتلاك اليهود للثروة، ولكن من المرجَّح أن هذا الحق لا يمتد إلى ملكية الأراضى[٢٧].

ويعلق المؤرخ Bachrach على ذلك النص قائلًا: "لن يكون من الحكمة أن نستنتج أن يهود مملكة البرجنديين كانوا فئة عنيفة جدًا، لذلك كان لا بد من ردعها من خلال قوانين أشد من تلك التي تصدر لكبح جماح المسيحيين والوثنيين. كما أن وجود تشريع خاص ينص على عقوبة الإعدام بحق اليهود الذين يهاجمون رجال الدين المسيحي قد يوحي بأن رجال الدين كانوا ضحايا العنف اليهودى، أو أنه ربما خافوا من مثل هذا العمل، وسيكون هذا الاستنتاج ضعيفًا، في ضوء صمت مجالس البرجنديين Burgundians الكنسية التي تتلعق بمثل هذا النوع من النزاع المحتمل، وهناك تشريع واحد فقط يتعلق باليهود صادقت عليه تلك المجالس، وهو البند الخامس عشر لمجمع إيبون عام ٥١٧م، الذي يشير إلى ضرورة تجنب تناول المسيحيين الطعام مع غير المسيحيين"[٢٨].

وهكذا تعددت الطوائف والمذاهب الدينية في برجنديا، فلم يقتصر الأمر على انقسام المجتمع البرجندي إلى أريوسيين وكاثوليك فحسب، بل وجدت طوائف دينية أخرى مثل بقايا الوثنيين سواء كانوا من الغالو رومان أو البرجنديين، جنبًا إلى جنب مع اليهود. والسؤال الآن:

كيف تعامل الملوك البرجنديون مع ذلك الخلاف العقائدى؟ أو ما السياسة الدينية التي اتبعها الملوك البرجنديون؟.

السياسة الدينية للملوك البرجنديين:-

لم يكن للعائلة المالكة البرجندية ولاء ديني خاص لأي من الكاثوليكية أو الأريوسية. فبينما اعتنق الرجال المسيحية على المذهب الأريوسي، اعتنقتها النساء على المذهب الكاثوليكي، ولعل ذلك دفع الملوك البرجنديون إلى عدم اتباع سياسة رادعة للغالو رومان من خلال انتهاج سياسة أريوسية متشددة، مما ترك المجال مفتوحًا أمام الكاثوليك للوجود الملكي(٢٩).

وفي هذا السياق نجد عددًا كبيرًا من الأزواج الأريوثوذكسيين في العائلة الملكية. ويظهر الزوج الأريوثوذكسي الأول مع "شلبريك الأول" Chilepric I وزوجته، والتي تم الكشف عنها لأول مرة من قبل "إيان وود" Ian Wood على أساس رسالة من "صيدنيوس أبوليناريوس" إلى أسقف ليون، حيث يذكر أن الملكة تمدح صوم الأسقف في حين أن زوجها أكثر اهتمامًا بالمأدب التي ينظمها. وعلى ما يبدو أن الملكة الكاثوليكية التقية قد تزوجت من ملك أريوسي، يعلم كيف يكون متسامحًا، منذ أن سمح لأسقف ليون بالتبشير وتحويل البرجنديون بموعظته، ودون التخلي عن أريوسيته قدَّم تبرعًا لصالح رئيس ديركوندات في جورا(٣٠).

كما أن هناك ثلاثة من أصل أربعة أزواج من الجيل الملكي البرجندي الثاني يعدوا أريوثوذكسيين أيضًا، لأنه ليس من المعروف ما إذا كان "جدومار الثاني" Godomar II عنده زوجة أم لا. وكانت كاثوليكية زوجة الملك "شلبريك الثاني" هي الحالة الأولى التي تم فيها الكشف عن الثناء القوى الذي تتلقاه من صيدنيوس. أما زوجها شلبريك الثاني فمن الواضح أنه مات على المذهب الأريوسي، طالما أنه ليس هناك أية رواية تتحدث عن التحويل. من ناحية أخرى كانت بناته "كلوتيلدا" Clotilda و"كرونا" Chrona كاثوليك أيضًا ويبدو أنهم اتبعوا في ذلك إيمان والدتهم.

أما الزوجة الثانية فهى "ثيودلينيد" زوجة الملك "جودجزل" Godgesil، والتي أسست ديركاثوليكي في جنيف، عاصمة زوجها. كما أن هناك تبرعًا من القرن العاشر يشير إلى أن الملكة قد بنت ديرًا أخر في ليون. في حين كان زوجها أريوسى، ومات بجانب الأسقف الأريوسي في فيين(٣١).

والزوجة الكاثوليكية الثالثة من هذا الجيل، والتي لا جدال فيها، هي "كاريتين" Caratene زوجة "جندوباد"، والمعروفة من قبل مرثية محفوظة لمخطوطة من القرن التاسع، والتي تحتفل بها كملكة كاثوليكية ملتزمة تؤسس الكنائس(٣٢). في حين يذكر "جريجوري التوري" أن زوجها "جندوباد" كان أريوسى اكتشف أن المذهب الأريوسي مذهب هرطقى، وطلب من القديس "أفيتوس" Avitus أن يعمده سرًا، ولكن الأسقف طلب منه أن يفعل ذلك أمام الشعب وعد ذلك نوعًا من الخوف من رعاياه، وأخبره أنه من الأفضل أن يعلموا الحقيقة والصدق تحت توجيهه من أن يستمروا على الخطأ بعد وفاته. ولكنه رفض الاعتراف بالديانة الكاثوليكية أمام رعاياه وظل على أريوسيته(٣٣).

وعلى المستوى المحلي، كانت العقبة الرئيسة أمام الاندماج الكامل بين البرجنديين والغالو رومان هي أن الرومان كانوا كاثوليك، بينما كان البرجنديون أريوسيين. ورغم ذلك كان الملوك البرجنديون متسامحين مع رعاياهم الكاثوليك(٣٤). وبلغ التسامح الديني مداه في عهد الملك "جندوباد" Gundobad، الذي كان متسامحًا لدرجة أنه سمح لأفراد عائلته باعتناق الكاثوليكية، جنبًا إلى جنب مع تسامحه مع رجال الدين الكاثوليك. وكان مستشاره هو الأسقف الكاثوليكي أفيتوس، الذي كلفه بكتابة رسائله، بالإضافة إلى كتابة المسائل اللاهوتية والدخول في مناقشات مع رجال الدين الأريوسيين(٣٥). وهذا لا يكشف عن تطور الملك اللاهوتى فقط، ولكن أيضًا درجة عالية من التسامح للنقاش في المملكة البرجندية(٣٦).

ومن مظاهر التسامح الديني لدى البرجنديين، أنهم لم يدمروا التنظيم الكنسي الذي وجدوه، بل ظلت إدارة الكنيسة وأشكالها الطقوسية وتعاليمها الدينية والأخلاقية دون تغيير. كما أنهم أسهموا في بناء ثلاث كنائس على الأقل في جنيف، التي اتخذوها عاصمة لهم في أغلب فترات حكمهم(٣٧). كما احتوى القانون البرجندي على مواد تشير إلى احترام البرجنديين للكنائس واحترموها احترامًا كبيرًا، ونص على معاقبة كل من لم يبدى الاحترام للكنيسة. كما اعترف بحق اللص الذي ارتكب سرقة تنطوي على عقوبة الإعدام في اللجوء إلى الكنيسة (٣٨).

وبالعودة إلى فكرة الأزواج الأريوثوذكسيين، يمكن طرح العديد من الفرضيات لتوضيح وجود تلك الزيجات بين البرجنديين. والحل الأول هو أن تلك الازدواجية جعلت من الممكن مراعاة الوضع العام للمملكة، حيث يجب على الأريوسية الجرمانية الأقلية أن تجاور أغلبية غالو رومانية كاثوليكية، وقد شكل "جندوباد" و"كاريتين" من وجهة النظر هذه زوجًا سياسيًا فعالًا

بشكل خاص مكن تكاملية المؤسسة الملكية من التكيف مع الواقع المتعدد الطوائف والأعراف للمملكة. ويبدو أيضًا أن "جودجزل" و"ثيوديليد"، مثل "شلبريك الثاني" وزوجته، في الأدوار. ومع ذلك يجب وضع ملاحظتين في الحسبان في صورة الأنساب والدين. أولًا: كانت جميع النساء المعروفات من السلالة الملكية البرجندية كاثوليك باستثناء زوجة "جندوك" Gundoic. ثانيًا: تم تعميد جميع الأطفال الذين ولدوا نتيجة هذه الزيجات للكاثوليكية، أو تحولوا للكاثوليكية في حياة أمهم.

كان الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة هو "سجسموند" Sigismund، ذلك الأمير الذي ولد بين عامي ٤٧٠م و ٤٨٠م، عندما كانت الحكومة البرجندية الرباعية تواجه مشاكل داخلية، وكان "جندوباد" في ذلك الوقت موالياً للجرمانية والأريوسية؛ ولذلك كان من الصعب تعميد وريثه على المذهب الكاثوليكي، وبالتالي تم تعميده على المذهب الأريوسي، ولكنه احتفظ بالتقاليد العائلية لقبول المعمودية الكاثوليكية لابنته. وعندما حل الاستقرار في المملكة وضع حدًا لهذه الحالة الاستثنائية من خلال السماح لأبنائه بالحرية الدينية. ولذلك اعتنق "سجسموند" بعد فترة قليلة الكاثوليكية[٣٩].

وقد شهدت التقاليد البرجندية أجيالًا غير متوقعة من خلال الزواج الأريوثوذكسي الذي شكلته "كلوتيلدا" الكاثوليكية و"كلوفس" الوثني. هذا الزواج الذي تطلب من الملك احترام العادات العائلية لزوجته، ولا سيمًا في إمومية الدين. وبالتالي لم يجرؤ على استحضار حقه كرب للأسرة في منع معمودية ابنهم الأول[٤٠].

وفي الحقيقة من الصعب العثور على أسماء زوجات البرجنديين الملكية الذين كانوا يعتنقون المذهب الأريوسي، بالرغم من أن بنت سجسموند ظلت على الأريوسية بعد فترة طويلة من تحويل أبيها[٤١].

ورغم أن البرجنديين نشأوا على المذهب الأريوسي، شأنهم في ذلك شأن بقية الطوائف الجرمانية، إلا أنهم –فيما يبدو- احترموا رغبة الإناث في اعتناق المذهب الآخر المخالف لآرائهم، وهو المذهب الكاثوليكي، وليس أدل على ذلك من أنهم لم يحركوا ساكنًا حيال الأميرة "كلوتيلدا" عندما اعتنقت الديانة الكاثوليكية؛ الأمر الذي كان له الأثر البعيد على شعب الفرنجة بعد أن تزوجت من "كلوفس"، ويرجع لها الفضل في تشجيع زوجها وقومه على اعتناق المسيحية على المذهب الكاثوليكي[٤٢].

وقد مثل تحويل البرجنديون- ومعظمهم أتباع الأريوسية- وفي المقام الأول ملوكهم، المهمة الرئيسة التي واصل "أفيتوس" Avitus أسقف فيين العمل بها طوال فترة أسقفيته(٤٣). ورغم فشله في تحويل "جندوباد"، الذي رفض إضعاف الأريوسية شعبيًا أمام الكاثوليكية، إلا أن ابنه وخليفته "سجسموند" قد عاد إلى الكاثوليكية في حياة أبيه(٤٤).

وبذلك نجح "سجسموند" في استغلال كلتا المشاعر الأريوسية والكاثوليكية؛ فقبل تحويله تزوج من بنت "ثيودوريك" ملك القوط الشرقيين، مما أتاح له الفرصة للتحالف مع القوط الأريوسيين في إيطاليا. وعندما أصبح كاثوليكيًا، رفض "سجسموند" مصادرة الكنائس الأريوسية. وهكذا رغم أنه كاثوليكي، إلا أنه يستطيع طلب الدعم من الطبقة الارستقراطية الأريوسية، وكذلك التدرج الهرمى للكنيسة الأريوسية(٤٥).

ومن خلال دراسة السياسة الدينية للملوك البرجنديين نستطيع القول أن تلك السياسة ارتكزت على أساسين، هما:

١- السماح لنساء الأسرة الحاكمة باعتناق المذهب الكاثوليكي على حين كان الرجال أريوسيين.
٢- الحرية الدينية للشعب بشكل عام، فبينما اعتنق البرجنديون المذهب الأريوسي اعتنق الرومان المذهب الكاثوليكي.

ومن خلال دراسة هذا البحث توصلنا لمجموعة من النتائج عن الحياة الدينية للمجتمع البرجندي بشكل عام، واعتناق المسيحية والمذاهب الدينية في المجتمع بشكل خاص، لعل أهمها:

١- إن مسألة تحويل الشعب البرجندي في الأصل سواء إلى الأريوسية أو الكاثوليكية، تظل صعبة. ويكفي القول إنه بحلول عام ٥٠٠م لم يكن هناك سوى كنيسة أريوسية واحدة في برجنديا
٢- تعددت الطوائف والمذاهب الدينية في برجنديا، فلم يقتصر الأمر على انقسام المجتمع البرجندي إلى أريوسيين وكاثوليك فحسب، بل وجدت طوائف دينية أخرى مثل بقايا الوثنيين سواء كانوا من الغالو رومان أو البرجنديين.
٣- اتسمت السياسة الدينية للملوك البرجنديين بالتسامح سواء مع المذهب الكاثوليكي أو مع الطوائف الدينية الأخرى مثل الوثنيين واليهود.

هوامش البحث

(1) Brundage (J. A): Law, Sex, and Christian Society in Medieval Europe, London, 1987, p. 134
سمر ربيع عبد الغفار: المرأة في المجتمع الجرماني، رسالة ماجستير غير منشورة بكلية الآداب جامعة المنصورة، ٢٠١٦م، ص ١٥.
(2) Putz (W.): Survey of Geography and History of the middle Ages 476- 1492, London, 1854, p. 53.
(3) Thompson (E. A.): Christianity and the Northern Barbarians, in (N. M. S), 1957, p. 3., Thompson: Early Visigothic Christianity, Latomus, Tom. 21, 1962, p. 807.
(4) Thompson: Christianity and the Northern Barbarians, p. 3.
(5) Socratos: The Ecclesiastical History, eng. Trans by Wace (H.), and Schaff (P.), London 1914, pp. 174- 175., Mosheim (J. L.): An Ecclesiastical History, Ancient and Modern from the Birth of Christ to the Beginning of the Eighteenth Century, Cincinnati, 1858, p. 109.
(6) Thompson: Early Visigothic Christianity, p. 807.
(7) Marcellianus (A): The Later Roman Empire 354-378, Trans by Rolfe, vol. 3, London, 1986., p. 496., Thompson: Christianity and the Northern Barbarians, p. 15.
سمى الكاهن الأعظم بين البرجنديين Sinistus، وكان يشغل المنصب مدى الحياة، ولم يحمل أى تهديد بالخلع من منصبه مثل الملوك.
Cf: Marcellianus: The Later Roman Empire, 496., Dowden (K): European Paganism, The realities of Cult from Antiquity to the middle Ages, New York, 2000, p. 234.
(8) Favord: Les Burgondes: un royaume oublié au coeur de l'Europe, 2002., p. 37.

(9) Freeman: Western Europe in the Fifth Century, London, 1904., p. 192.
(10) Sweeter: A Dynasty of Prayer, Virginia, 2000, p. 161.
(11) Orosius: Seven Books of History against the Pagans, trans by Fear A. T., Liverpoole, 2010., p. 370., Mitchell (K.): History and Christian Society in Sixth-century Gaul an Historiographical Analysis of Gregory of Tours' Decem Libri Historiarum, Michigan, 1983, p. 48.
(12) Socratos: The Ecclesiastical History, pp. 174- 175., Wood (I.): Christianization and the dissemination of Christian Teaching, in N. C. M. H., Vol. 1, Cambridge, 2005, p. 712.

(13) Helfen: The World of the Huns, Studies in their History and Culture, London, 1973, p. 84.

(14) Wood: Christianization and the dissemination of Christian Teaching, p. 712.

(15) The Gallic Chronicles of 452, from Roman to Merovingian Gaul, edited by Murray (A. C.), Toronto, 2008, p. 85.

(16) Gregory of Tours: History of the Franks, trans by Brehaut, New York, 1916, p. 31.

(17) Sweeter: A Dynasty of Prayer, pp. 161- 162.

أدى زيادة التقارب بين البرجنديين والقوط الغربيين في حروب الهون عام ٤٥١م، وحروب السويفى عام ٤٥٦م إلى زيادة تعاطف البرجنديين تجاه الأريوسية. كما أن هناك من المؤرخين من يربط بين تحويل البرجنديين للأريوسية وإعادة توطينهم بقيادة الملك جندوك بعد الهزيمة المروعة التى عانوا فيها بشدة على يد الهون عام ٤٣٧م.

Cf: Moeller (W): History of the Christian Church in the middle Ages, London, 1893, p. 34., Schsferdiex: Germanic and Celtic Christianities, 2007, p. 55., Russell (J. C.): The Germanization of Early medieval Christianity, New York, 1990, p. 240.

(18) Mille: Abrege Chronologique de l'histoire ecclésiastique, civile et littéraire de Bourgogne, Tom. 1, Dijon, 1721, p. 9.

(19) Wood: Misremembering the Burgundians, in Die suche nach den Urspriingen: von der Bedeutung des Fruben mittelaters, Vienne, 2004. pp. 143-144.

(20) Wood: Christianization and the dissemination of Christian Teaching, p. 720.

(21) Romano) Boyson (D.): -Burgundian Society in the Age of Gundobad: Some Legal, Archaeological and Historical Evidence, N. M. S., Vol. 32, 1988, p. 111.

لم تذكر إلا كنيسة أريوسية واحدة فقط في برجنديا، وهى التى ذكرت في فيين بمناسبة الصراع بين جودجزل وجندوباد، واتخذها جودجزل مأوى له حيث قتل جنبًا إلى جنب مع الأسقف الأريوسي. وللأسف لم يتم تحديد موقع هذه الكنيسة.

Cf: Bennet: Geneve et Lyon, 2000, p. 245.

(22) James (E): The origins of France: from Clovis to the Capetians, 500-1000, London, 1982, pp. 93-94., Binding: Das Burgundiagh-Romanisghe Konigreich (Von 443- 532), Leipzig, 1868, p. 122.

(٢٣) مختصر آلاريك: أصدر الملك آلاريك الثاني في بداية القرن السادس الميلادى قانون الرومان المعروف باسم مختصر آلاريك Breviariam Alaricianum، وهو عبارة عن مجموعة من القوانين التى تم تجميعها أساسًا من قوانين جستنيان وثيودوريك، والتى كانت مصدرًا لقوانين لاحقة.

CF: The Visigothic Code, trans by Scott (S. P.), Boston, 1910, p. XXIV.

(24) Bachrach: Early Medieval Jewish policy in Western Europe, Minneapolis, 1977, p. 50.

(25) Linder (A): The Jews in the Legal Sources of the Early Middle Ages, Wayne,1997, pp. 207-208.

(٢٦) الصـــولدي: عملة معدنية ذهبية، تزن حوالي ١:٧٢ من قيمة الجنية الاســـترليني ويحتاج المواطن الروماني الفقير إلي عملتين من الصولدي لشراء ما يكفيه من طعام على مدار العام.
إيهاب صديق حميده: مملكة القوط الشرقيين في شبه الجزيرة الإيطالية "٤٩٣- ٥٦٣م"، رسالة ماجســتير غير منشــورة بكلية البنات للآداب والعلوم التربية بجامعة عين شــمس، ٢٠١١م.، ص ٧٤.

(27) The Burgundian Code, p. 86., Linder: The Jews in the Legal Sources of the Early Middle Ages, p. 208., Matile: Etudes sur la Loi Gombette, Turin, 1847, p. 23.

(28) Concilia Galliae: A. 511-A. 695. Corpus Christianorum: Series Latina 148A, edited by Charles de Clercqm Tumhout, 1963, pp. 27-28., Hefele (C.): A History of the Councils of the Church from the original Documents, Trans by Clarck (W.), Vol. 4 A.D. 451 TO A.D. 680., Toronto, 1997, p. 98., Bachrach: Early Medieval Jewish policy in Western Europe, Minneapolis, 1977., p. 51.

(29) Halsall: Barbarian Migiration and the Roman west 367- 568, Cambridge, 2006, p. 301.

(30) Agobard of Lyons: Book against the law of Gundobad and the wicked duels that are carried out through it, trans by Booker (C. M.), in CCCM, Turnhout, 1981, p. 10. Aurell: La Mixite Religieuse chez les Couples Royaux Bourgondes, Paris, 2005, p. 2.

الأزواج الأريوثوذكسيين: هو الزواج الذي يجمع بين رجل يدين بالمذهب الأريوسي، وإمرأة تدين بالمذهب الأرثوذكسي، والعكس. (الباحث)

(31) Aurell: La Mixite Religieuse chez les Couples Royaux Bourgondes, p. 2.

(32) Aitus of Vienne: and Selected Prose, Trans by Danuta Shanzer Ian Wood, Liverpool, 2002., p. 19., Aurell: La Mixite Religieuse chez les Couples
Royaux Bourgondes, p. 3.

استدعت الملكة كاريتين كل أساقفة المملكة لتكريس كنيسة ليون. وفي هذه المناسبة طلب مارسيل أسقف داى منها تخفيض الضرائب المفروضة على مدينته. وبالفعل توسطت الملكة لدى زوجها الذي بعد أن رفض في البداية، إســـتجاب لطلبها بعد أن أنقذ مارســـيل زوجته من مرض خطير. وتظهر هذه الحادثة الدور الوسيط الذي كانت تلعبه الملكة بين الملك والكاثوليك.

Cf: Favord: Les Burgondes, p. 930.

(33) Gregory of Tours: History of the Franks, p. 44., Gregoire de Tour: Histoire Ecclesiastique des Franks, Paris, 1836, pp. 110-111., Hefele: History of the Councils, p. 85.

علية عبد السميع الجنزورى: جريجورى التورى وقيام دلوة الفرنجة، ص ١٠٤.

(34) Mardirossian (A.): Canons d'Orient et royaume barbare. L'influence du droit canonique oriental sur la législation du concile d'Epaone, Revue historique de droit français et étranger, Vol. 83, No. 3, 2005, p. 359.

(35) Dufarad: Histoire de Savoie, Paris, 1913, p. 27., Firey: Toward A History of Carolingian Ligal Culture, Toronto, 1995. p. 65., Glasson: Histoire de Droit et des institutions de la Francais, Tom. 2, 1887, p. 605.

(36) Jones: Social Mobility in Late Antique Gaul, Cambridge, 2009. p. 36.

(37) Dopsen (A.): The Economic and Social Foundations of European Civilization, New York, 1937, p. 243., Lee: From Rome to Byzantium AD 363 to 565: The Transformation of Ancient Rome, 2013, p. 186.

38() The Burgundian Code, trans by Fisher, Philadelphia, 1972. p. 69., Matile: Etudes sur la Loi Gombette, p. 23.

) Agobard of Lyons: Book against the law of Gundobad, p. 10., 39(Aurell: La Mixite Religieuse chez les Couples Royaux Bourgondes, pp. 3-4.

) 40(Aurell: La Mixite Religieuse chez les Couples Royaux Bourgondes, p. 6.

(41) Avitus of Vienne: Letters, p. 19.

(٤٢) محمود محمد الحويرى: رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية، دار المعارف، ط ٣، ١٩٩٥م، ص ١٤٢.

(43) Delmaire (R) and others: Les lettres d'Avit de Vienne. La correspondance d'un évêque «politique», Publications de la Maison de l'Orient et de la Méditerranée, 2009, p. 314.

)44(Avitus of Vienne: Letters, p. 19., Hefele: History of the Councils, p. 85., Binding: Das Burgundische, p. 167.

(45) Sweetser: A Dynasty of Prayer, p. 165.